سلسلة
نظريات الإسلام العسكرية

(٥)

النظرية الإسلامية
في
تقاليد الجندية وآداب الحرب



اللواء الركن
محمد جمال الدين علي محفوظ

دار الاعتصام

دار الإعتصام
٨ شارع حسين حجازى - تليفون ٣١٧٤٨/٢٦٠٣١ - ص.ب ٤٧٠ - القاهرة
للطبع والنشر والتوزيع

النظرية الاسلامية
فى
تقاليد الجندية وآداب الحرب

سلسلة
نظريات الإسلام العسكرية

النظرية الإسلامية في تقاليد الجندية وآداب الحرب

اللواء أركان حرب
محمد جمال الدين علي محفوظ

دار الاعتصام

بسم الله الرحمن الرحيم



اللواء أركان حرب
محمد جمال الدين على محفوظ

* ولد فى أغسطس ١٩٢٢ ميـلادية ووالده علم من علماء الازهر هو المغفور له الشيخ على محفوظ عضو هيئـة كبار العلماء وأستاذ الوعظ والارشـاد .

* مدة خدمته العسكرية ٣٣ سنة قضاها فى وظائف القيادة والتدريس والاركان والادارة العليا والتوجيـه المعنوى والحرب النفسية والاعلام . وقد انتهت خدمته عام ١٩٧٥ م .

* تخرج فى كلية القـادة والاركان فى مصر وحصل على دراسات عسكرية عليا فى أكاديمية ناصر العسكرية .

* حصل على دورات دراسية فى كثير من المعـاهد الاجنبية لامريكا وانجلترا وروسيا .

* حصل على ماجستير فى العلوم السياسية من جامعة القاهرة .

* عمل مديرا للتوجيـه المعنوى بعـد حرب يونيو ١٩٦٧ م فكان من أبرز أعماله أنه أقام منهج اعادة الروح المعنوية على أسـاس منهج الاسـلام .

١ ــ فجعل « الجهاد فى سبيل الله » هى عقيدة القتال للجيش .

٢ ــ وجعل « النصر أو الشهادة » هى شعار الجيش .

٣ ــ وجعل « الله أكبر » هى صيحة القتال .

٤ ــ وجعل لعلماء الدين ووعاظ الجيش دورا كبيرا فى معايشـة الجيش وربط نشـاط رجاله فى السلم والحرب بالدين وقد كان هذا المنهج من أهم أسباب النصر فى حرب رمضان .

* المؤلفات العلمية والكتب :

له أكثر من ٢٠ كتابا فى العلوم العسكرية وفى القيـادة العسكرية وأساليب التعليم والادارة العلمية وفى التوجيه المعنوى وما زال بعض هذه الكتب مقررا للدراسة فى الجيش المصرى .

* تخصص فى دراسة العسكرية الاســلامية منذ اكثر من ربع قرن ووضع فيها عدة كتب وأبحاث ومقالات فى المجلات الاسلامية فى مصر والعالم العربى كما قدم عددا من الاحاديث الدينية فى الاذاعة والتليفزيون وخاصة برنامج نور على نور وشـــارك فى أعمال المؤتمر الاسلامى الدولى الذى عقد فى لندن فى فبراير ١٩٧٩ حول الدفاع والعـــالم الاسلامى ببحث عنـــوانه « الفكر العسكرى فى الاسلام » والمؤتمر العالمى الثالث للسيرة والسنة النبوية الذى عقد فى الدوحة (دولة قطر) فى نوفمبر ١٩٧٩ .

* يحمل لواء الدعوة الى أحياء أمجاد العسكرية الاسلامية باعتبارها جانبا رائدا من الحضارة الاسلامية .

* ومن أحدث مؤلفــاته :

١ ــ كتاب « المدخل الى العقيـــدة والاســـتراتيجية العســـكرية الاسلامية » .

٢ ــ كتاب « تربية المراهق فى المدرسة الاسلامية » .

٣ ــ كتاب « العسكرية الاسلامية ونظريات العصر » .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى سبقت حكمته أن تكون الأمة الاسلامية ، أمة قوية مرهوبة الجانب فأوجب عليها الجهـاد فى سبيله ، وأمرها باعداد القوة والمرابطة التى ترهب الأعداء وتخيفهم من عاقبـة عدوانهم ، كما فى قوله جل شـأنه : ((وجاهدوا فى الله حق جهـاده هو اجتباكم)) (الحج : ٧٨) وفى قوله سبحانه : ((وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)) (الأنفال : ٦٠) .

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وامام المجاهدين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .. وبعـد ...

● فان الاسـلام ، كما نظم أمور الحياة دنيا ودينا ، قد نظم أمور الحرب باعتبارها ظاهرة اجتماعية ، ووضع لها المبادىء والنظريات الأساسية ، التى قامت عليها أول مدرسة عسكرية فى تاريخ العرب مكتملة الأركان وتحتوى على المبادىء والنظريات التى تقوم عليها أية مدرسـة عسـكرية شرقا أو غربا .

● وعلى أســـاس هذه المبــادىء والنظريات ، قامت الاستراتيجية العسكرية الاســـلامية ، التى طبقها المسلمون الأوائل فى معاركهم التى خاضوها اعلاء لكلمة الله وواجهوا بها أعداء يفوقونهم فى العدد والعدة ، فانتصروا عليهم باذن الله ، وامتــدت فتوحاتهم فى أقل من مائة عام من الصــين شرقا الى المحيط الأطلسى غربا ، وهزموا فى المعــركة البحــرية — وهم أبنــاء الصحراء — أسطول بيزنطة أقوى أساطيل زمانه .

● ثم تعــرض العــرب والمســلمون — يوم تخلوا عن الجهــاد — لحرب حضــارية استهدفت طمس معــالم حضارتهم وفرض التبعية عليهم حتى أصبح العسكريون فى كثير من دول العرب والاسلام يدرسون النظريات العسكرية الأجنبية ، وأعمال القادة الأجانب ، والتاريخ العسكرى للدول الأجنبية ، وكأنه ليس للعرب والمسلمين نظريات عسكرية ، ولا قادة ، ولا تاريخ عسكرى يستحق الدراسة !!.

● ان التكليف القرآنى بالجهــاد ، وباعداد القــوة والمرابطة ، تكليف قائم وباق حتى تقوم الساعة .

ومقتضى ذلك ألا تفتر عزائم الأمة الاسلامية عن اعداد القوة بعناصرها المتعددة مع الأخذ بكل أسباب التقدم والتطور التى تفرضها طبيعة العصر .

● فواجب الأمة العربية والاسلامية — وهى تتجه نحو

النهضة الحضارية الشاملة ـ أن تتخذ مبادىء العسكرية الاسلامية ونظرياتها منطلقا لبناء قوتها الذاتية .

● فان من اهم ما تتميز به تلك المبادىء أن لها ـ بحكم انبثاقها من الدين ـ من الأصالة ، ما الدين من أصالة ، وأن لها ـ فى كل عصر ـ من القوة والصحة والكمال ، ما يجعل الجيوش التى تعمل بها ـ قوى لا تقهر باذن الله .

● ومن أجل ذلك سوف نتناول النظريات العسكرية الاسلامية بالعرض والدراسة بحيث تصدر على هيئة سلسلة تختص كل حلقة منها باحدى النظريات .

نسأل الله تعالى أن ينفع بها العرب والمسلمين وأن يوفقنا جميعا الى كل ما فيه عز الاسلام والمسلمين .

لواء
محمد جمال الدين محفوظ
٣٠ ش الشهيد عبد المنعم اسماعيل
الماظة ـ مصر الجديدة

* * *

التقاليد العسكريه للجنديه

التقاليد العسكرية فى توجيهات الاسلام :

● للمجتمع الاسلامى فى كل مكان تقاليد عسكرية خاصة تقتضيها طبيعته كالانضباط والطاعة والنظام وحسن المظهر واحترام الأقدمية .. الخ .

ويعتبر تعلم الجندى لهذه التقاليد وتعويده عليها أساسا لتحوله من رجل « مدنى » الى رجل « عسكرى » .

وعادة ما يرى المواطن العادى فى هذه التقاليد نوعا من القيد على حريته ، إذ أنه يدخل بيئة جديدة عليه ، وحياة خشنة تحكمها أوامر وتعليمات وقوانين ، وتتطلب منه نوعا من السلوك المنظم الدقيق الى غير ذلك مما لم يكن مألوفا لديه فى حياته قبل الجندية .

من أجل ذلك كانت « مرحلة الاعداد الأساسية » التى يقضيها الجندى فى مستهل حياته العسكرية والتى تقوم على غرس التقاليد العسكرية فيه ، من أخطر مراحل الخدمة العسكرية التى توليها الجيوش كل عناية حتى تتم عملية « التحويل من مواطن مدنى الى مواطن عسكرى » بصورة صحيحة ورشيدة ، لا تترك مضاعفات سيئة ، أو آثارا نفسية ضارة فى نفس الجندى وشخصيته ، تصاحبه طوال خدمته فى

الجيش ، فتعيق حركته وتضعف من ايجابيته ، وقد تضعف من ارادته على القتال ـ الحرب وهنا يكمن الخطر كله .

● ان الناس فى نظرتهم للجندية فى اى مجتمع يتفاوتون فى اقبالهم عليها وفهم مغزاها ، فمنهم من يؤيدها امتثالا للقانون ، ومن يؤديها خدمة للوطن ، وتريد القيادة أن تجعل من هؤلاء وأولئك محاربين يخوضون الحرب ، فيقاتلون بارادة قوية ، وعزم لا يلين ، ويقدمون أرواحهم فداء للهدف الذى يقاتلون من أجله ..

من أجل ذلك فان كل القيادات تضع نظما معينة للتربية الأساسية للجندى ، تصب فيها كل خبرات العسكريين وأساتذة العلوم السلوكية .. ومع ذلك فلا يستطيع اى جيش أن يدعى انه قد وجد العلاج الحاسم لمشكلة الجندية وتقاليدها العسكرية .

ومهما أجهد الخبراء أنفسهم فى ذلك فان الطريق الذى يؤخذ من توجيهات الاسلام هو أمثل الطرق وأضمنها وأحكمها على الاطلاق وهذا هو ما سوف نبينه فيما يلى ..

١ ـ الجندية :

● فالجندية فى توجيهات الاسلام جهاد فى سبيل الله ، والجهاد هو الوظيفة الشريفة التى كرم الله بها هذه الأمة واختارها لأدائها كما يفهم من قوله تعالى :

« وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم »

(الحج ٧٨ ــ اجتباكه يعنى اختاركم)

وهدف الجهاد هو اعلاء كلمة الله ..

وكل الدول تعمل على تنمية دوافع الوطنية وحب الوطن فى نفوس ابنائها منذ نعومة أظفارهم لكى يقف الجندى مدافعا عن وطنه المهدد بالخطر ممتلىء النفس بالعاطفة الوطنية ، ومستعدا للتضحية بالروح فى سبيله ..

لكن .. ما « الوطنية » الى جانب « اعلاء كلمة الله » ؟؟
هنا تبرز عظمة النظرية الاسلامية ..

فاذا كانت النفس يزيدها حب الوطن قوة بمقدار ما فى الوطن كله من قوة ، فما اكثر ما يزيدها الايمان بالوجود كله ، وبخالق الوجود كله من قوة ..

● فدوافع الجنــدية فى توجيهات الاســلام من السمو والقــوة بحيث لا تتســامى اليها دوافع النظم الوضــعية للجندية ، ويكفى دليلا على ذلك ان تاريخ الاسلام يثبت أن القيادة الاسلامية لم تواجه ما تواجهــه الجيوش عادة من مشكلات تتعلق باقبال الرجال على الجندية أو على القتال .. وليس هذا فحسب ، بل انه يثبت أن المسلم المجاهد كان يعتبر الشهادة شرفا واملا يتوق الى تحقيقه لكى يحظى بجنة عرضها السموات والأرض .

* * *

٢ ـ الانضباط :

من المفيد أن نتناول الانضباط باعتباره من أهم التقاليد العسكرية ببعض التحليل ..

يعرف الانضباط(١) فى علم النفس العسكرى بأنه « الحالة العقلية ومقدار التدريب التى تجعل الطاعة والسلوك السليم أمورا غريزية فى جميع الظروف » .

من ذلك يتضح أن الانضباط هو شىء يمكن تنميته فى العقل عن طريق التدريب ويتجلى فى الطاعة والسلوك السليم بصورة غريزية أو تلقائية .

وأهم ما يستفاد من هذا التحليل العلمى للانضباط أن الطاعة ليست هى كل محتوياته ، اذ ما هى الا جزء منه ؛ وأن الانضباط الحق لا يكتمل الا اذا فعل المرء ما يعرف أو يعتقد أنه صحيح حتى « فى غيبة الأوامر أو الرقابة » وأن يحافظ على الطاعة والسلوك السليم فى جميع الظروف وفى ظل العوامل والمؤثرات والضغوط المختلفة . وهذا ما يعبر منه بأن تكون « الطاعة والسلوك السليم أمورا غريزية فى جميع الظروف » .

ولقد أجمع القادة العسكريون وعلماء النفس على أن ذلك النوع من الانضباط الذى يقوم على الطاعة والسلوك

---

(١) يسمى احيانا « الضبط والربط » أو « الضبط » .

السليم حتى فى غيبة الأوامر وبدون الحاجة الى رقيب ، وفى جميع الظروف) هو الانضباط الذى يجب أن يتحلى به رجال العسكرية فى الحرب الحديثة والسر فى ذلك هو ما يلى :

فوقت أن كانت الجيوش فى الحروب القديمة تحارب فى صفوف وجماعات متراصة ، كانت شخصية المقاتل الفرد تذوب فى الجماعة ، تجرفه معها وتسنده وتحجب نقط الضعف فيه تحت تأثير أن الجماعة تنظر اليه وترقبه ، واحساسه المعنوى بالطمأنينة لوجود زملائه على جنبيه ، فضلا عن أن رقابة القائد وسيطرته(١) على قوته بالعين والصوت كانت أمرا ميسورا لقربه منهم ولكونهم مجتمعين .

أما الحرب الحديثة التى ظهرت فيها أسلحة القتال ذات قوة النيران الهائلة ، وأسلحة التدمير الشامل (مثل القنبلة الذرية) فقد اضطرت الجيوش الى الانتشار ، فأصبحت هناك مسافات بين الجندى وزميله ، بل ان الجندى قد يواجه وحده موقفا لا يخلصه منه الا تفكيره وتصرفه وحدهما ، كذلك أصبحت سيطرة القائد على جنرده أكثر صعوبة وتعقيدا عن ذى قبل ، مما يمكن معه القول أن عنصر الرقابة المباشرة على الجندى فى الميدان لم يعد متوفرا .

---

(١) كان فريدريك الاكبر يقول فى هذا المعنى « انظر الى هؤلاء الرجال ، لو اختبرتهم واحدا واحدا لوجدتهم يكرهوننى ، لكنهم متى اجتمعوا فى صفوفهم وعلموا أن الضباط وراءهم بالسوط فانهم يضطربون خوفا ويكفى أن آمرهم حتى يلقوا بأنفسهم فى النار دون تفكير ، لانهم يجهلون كل شىء حتى الغرض الذى يقاتلون من أجله » .

فأهم ما يستخلص من تلك المقارنة بين الحرب القديمة والحرب الحديثة من حيث طبيعة كل منهما وموقف المقــاتل الفرد فيهما ، أنه لا قيمة للفرد الذى تعود الا يؤدى واجبه الا عند وجود رقيب عليه ، بل ان مثل هذا الفرد يكون وبالا على الجماعة اذ قد يؤدى اهمــاله أو تقاعسه (وهو فرد واحدا) الى هزيمة القوة او هلاكها .. اى أن الانضــباط العسكرى — بالتعبير العلمى — لم يعد فى « صلب الجماعة » كما كان بالأمس ، بل أصبح فى « صلب كل فرد » .

ولا يتأتى تحقيق هذا النــوع من الانضــباط بمقوماته السليمة الا على أساس الاقتنــاع الذى يولد لدى الفــرد « الدافع الذاتى » الى طاعة الأمر والسلوك سلوكا سليما بدون رقيب حتى فى أصعب الظروف وأقساها . فالانضباط الصحيح هو وحده الذى يدفع (على سبيل المثال) الجندى الذى يحمل رسالة لكى يبلغها الى جهة معينة فى أثناء المعركة الى اجتياز طريق وعر يتعرض فيه لرصاص العدو أو كمائنه ، فلا يقعده هذا الخطر عن تنفيذ مهمته ولو كلفته حياته على الرغم من انه ليس وراءه من يدفعه أو يراقب عمله .

ومن ثم كان توليد الدافع الذاتى نحو الطاعة والسلوك السليم عن طريق الاقتناع هو حجر الزاوية فى بناء الانضباط السليم لأنه هو المنشىء « للحالة العقلية » المنشودة ولذلك تفضل بعض المدارس العسكرية لفظ « الانضباط الذاتى » بدلا من لفظ « الانضباط » مجردا .

اسس بناء الانضباط فى الاسلام :

والواقع أن بناء الانضباط فى الاسلام يقوم على أسس عميقة وراسخة لا تتسامى اليها اعظم الأنظمة العسكرية الموضوعة كما يتبين مما يلى :

(أ) الحرية والكرامة الانسانية :

من أهم المعايير التى يقاس بهـــا مدى نجاح الأنظمة والدساتير ، نظرة كل منها الى الحرية باعتبارها من أهم القضـــايا التى تمس الفرد والمجتمع ان لم تكن أهمها على الاطلاق .

وقد قرر الاسلام مبدأ الحرية والكرامة الانسانية وحرر شخصية المســلم من العبودية لغير الله فى كل ميــدان من الميادين .

واذا كان الاسلام ثورة أجتماعية غيرت مجرى التاريخ البشرى ، فان فلسفة التغيير هذه لم يقمها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أو أحد الخلفاء الراشدين من بعده على أنقاض الحرية الفردية ، أو التضحية بها فى أية صورة من صورها . ولذا نراه ـــ مع حرصه الشـــديد على أن يدخل الناس فى الدين أفواجا ـــ لا يضرب على أيديهم ، ولا يسوقهم نحو الايمان سوقا ، لأن الاسلام يريد بالتغيير الذى نادى به وعمل على تحقيقه أن يصنع رجالا ابطالا ، ونماذج تستطيع أن تحمل مشاعل الفكر ، وتنير طريق الحرية .

والذين يساقون ، لا يمكنهم يوما من الأيام أن يكونوا

قادة فكر ، ولا أبطال جهاد ، وكيف لفاقد الشىء أن يعطيه ؟

وهذا هو السر فى أن الاسلام فى جهاده لتغيير العقيدة وارساء دعائم التوحيد ، انما كان يتحرك وينشط من خلال اطار عام يحمى الحـــرية ويصونها وتمثـــله الآية الكريمة **« لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى »** ، وبأسلوب الاقناع والمجادلة بالتى هى أحسن كما فى قوله تعالى :

« ادع الى ســـبيل ربك بالحكمة والموعظة الحســـنة وجادلهم بالتى هى أحسن » . (النحل ١٢٥)

كذلك قرر الاســـلام مبـــدأ الحرية فى النفس والمال والعرض ، فنفس الانسان فى الاسلام معصومة ، لا يجوز الاعتداء عليها أو النيل منها ، وكذلك مال الانسان معصوم ، لا يؤخذ منه شىء الا بحقه ، وكذلك عرض الانسان لا يهان ولا يخدش ، كما يقول عليه الصلاة والسلام **(كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه)** .

وقرر الاسلام مبدأ الحرية فى العبادة والاتصـــال بالله فليست هناك وساطة بين الله وعباده ، ولا يتوقف اتصال الله تعالى بعبد من عباده على وساطة أحد بل الله سميع بصير ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ويعلم السر والنجوى وبابه الكريم مفتوح لكل لاجىء ولكل طالب . يقول القرآن الكريم :

« واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » .
(البقرة ١٨٦)

والمسلم يستطيع أن يؤدى فروضــــه الدينية فى حرية واستقلال ، فالصلاة مقبولة حيثما اداها صاحبها ، فقد جعلت الأرض للمسلمين مسجدا ، كما جعل ترابها طهورا ، وكذلك يستطيع المرء أن يصوم ، وأن يؤدى الزكاة دون احتياج الى قائد يقيد خطواته ، أو يتعسف فى توجيهاته .

وهؤلاء الأنبياء والمرسلون عليهم الصـــلاة والسلام ، وهم النماذج العليا للبشرية وهم الذين صنعهم الله تعالى على عينه ، واختـــارهم لرسالته ، وجعلهم أمناء على وحيـــه وشرائعه ، وعصمهم بعصمته ، هؤلاء الأنبياء ليس عليهم الا التبليغ ، يقول القرآن المجيد :

« ما على الرسول الا البلاغ » . (المائدة ٩٩)

فهم لا يتدخلون ولا يتحكمون فى نفس الانسان بل يؤدون اليه أمانة ربهم ، والله هو الذى يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء . ولذلك يقول الله سبحانه وتعـــالى لرسوله الأعظم محمد صلوات الله وسلامه عليه **« ليس لك من الأمر شىء »** ويقول له :

« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وان لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، ان الله لا يهدى القوم الكافرين » . (المائدة ٦٧)

ويقول له : **« وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت**

ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ، انه عزيز حكيم » . (الأنفال ٦٢ ، ٦٣)

***

وقرر الاسلام مبدأ التحرر من زهو الأنساب والدماء ، فلا فضـــل لعــربى على عجمى ولا لعجمى على عربى الا بالتقوى ، والناس كلهم لآدم وآدم من تراب ، ولذلك فهم فى نظر الاسلام كأسنان المشط فى الاستواء ، وانما يتفاضلون بالعمل الصالح ، وليس هنـــاك شعوب راقيـــة فى دمائها واجناسها وأخرى منحطة فى أصلها وانسابها ..

« فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب » . (الطارق ٥ ــ ٧)

وخلاصة القول أن الحرية والكرامة الانسانية يكونان الأساس الأول فى بناء الانضباط السليم ، وقد تنبه القـــادة العسكريون ممن لهم خبرة طويلة فى قيادة الجيوش الى تلك النظرية فيقـــول واحد منهم : « ان العنصر الأول للتربيـــة العسكرية هو تطبيق انضباط حازم وعادل ودائم ، اذ يتطور هذا التطبيق بعد مدة ليصبح فى أول الأمر عادة ثم يتحول الى تذوق ، ولكن هذا الانضباط يفقد قيمته ويغدو معيقا مذلا اذا كانت نتيجته تحطيم ارادة المرعوســـين وأذابة شخصيتهم ، لأننا لا نحارب مع نفوس ضعيفة ، أو مع عبيد أو آلات ، ولكننا نقاتل مع رجال بكل ما فى هذه الكلمة من معان نبيلة ، وكلما صعدنا على سلم التسلسل تزايد ضرر وخطر الانضباط

الرامى الى قتل كل فكرة مستقلة ، ودفن كل مبادأة »(١) .

(ب) تنمية الضمير الدينى :

عنى الاسلام بتكوين الضمير الدينى للمسلم بحيث يندفع الى أداء واجبه على أكمل وجه معتمدا على قوة داخل نفسه ، لا على قوة أو سلطة خارجية وهذا هو أرقى مراتب الانضباط العسكرى وهو الانضباط الذاتى وفى هذا يقول نابليون بونابرت (ان المجتمع لا يعتمد على قوة ذاتية ويتوقف العمل الجماعى فيه على قوة السلطة وعلى دقة المراقبة لا شك انه يعتبر عبئا على المجتمع ومضيعة لقواه) .

لذلك فالضمير الدينى للمسلم ، هو الذى يمنحه القدرة على حسن السلوك والجدية فى التفكير والعمل الفعال وعلى الابتكار والتصرف فى مواجهة المواقف .

والضمير الدينى هو الذى يدفع المسلم الى أن يرعى الله فى عمله لأنه هو الرقيب المطلع ويصوره لنا الرسول الكريم فى العبادة بقوله (**ان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك**) .

ومن عجيب صنع القرآن الكريم فى تربية هذا الوازع الدينى الخلقى أنه لم يجعل نتيجة الخوف أمرا سلبيا ، وهو النجاة من العقوبة وعدم التعرض للعذاب ، بل جعل للخوف

---

(١) **الذكاء والقيم المعنوية فى الحرب ــ للجنرال جان بيريه .**

فوق النجاة والسلامة جزاء ايجابيا وثمرة اخرى فوق الخلاص من العقاب ، وهى الثواب الجزيل والأجر العظيم وذلك ما يفهم من قوله تعالى :

« وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فان الجنة هى المأوى » . (النازعات ٤٠)

« ولمن خاف مقام ربه جنتان » . (الرحمن ٤٦)

« ولنسكننكم الأرض من بعدهم ، ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد » . (ابراهيم ١٤)

ومثل هذا قد نراه فى حديث القرآن الكريم عن الخشية ، كقوله عز من قائل :

« ان الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير » (الملك ١٢) .

فجمع لهم بين المغفرة والأجر العظيم .

ولكن لا عجب فى ذلك ولا غرابة ، فالخوف من الله اذا جاء على وجهه ، وأثمر ثمرته ، كان أساسا للايمان واليقين ، وكان دافعا الى اتيان الأوامر واجتناب النواهى .

(جـ) تقدير المسئولية والاخلاص فى العمل :

عنى الاسـلام بتربية المسلمين على تقدير المسئولية والاخلاص فى العمل ، وقد جاء العمل الصالح فى القرآن الكريم مقرونا بالايمان حتى تكررت فيه عبارة « الذين آمنوا وعملوا

الصالحات » عشرات المرات مما يوحى فى قوة ووضوح بأن الانسان لا يكفيه أن يعرف او يضع فكرة فى رأسه ، بل يجب عليه أن يعمل بما تقتضيه هذه الفكرة فى جد واقدام ، وقدرة الله وتوفيقه معه بقدر يقينه واخلاصه .

ويقول النبى صلى الله عليه وسلم (**ليس الايمان بالتحلى أو التمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل**) . اى ليس الايمان بالكلام الحلو الذى تظهره بلسانك فقط أو بتمنى حصول الأمر المرغوب فيه ، ولكن يجب أن تكون هناك معرفة القلب العميقة لهذا القول وتصديقه بالعمل الطيب الصالح ، والا أتسعت مسافة الخلف بين المعرفة والتصرف وبين القول والعمل ، فيحق وعيد الله :

« **يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتا عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون** » . (الصف ٢ ــ ٣)

وفى الحديث الشريف (**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**) تجسيد لمسئولية الانسان فى عمله ورعاية من هم تحت رعايته .

ويدعو الرسول الى الصدق والاخلاص فى العمل حين يقول (**ان الله يحب اذا عمل احدكم عملا أن يتقنه**) ، وامتدح الله الصادقين والأوفياء فى قوله سبحانه وتعالى :

« **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** » .

(الأحزاب ٢٣)

وفى قوله : ((وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا)) .
(الاسراء ٣٤)

وقوله : ((ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه اجرا عظيما)) . (الفتح ١٠)

ويدعو الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكون العمل خالصا لوجه الله وابتغاء لمرضاته ، وليس ابتغاء ثناء الناس فيقول : (ان الله لا يقبل من العمل الا ما كان له خالصا وابتغى به وجهه) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(ان الله تبارك وتعالى اذا كان يوم القيامة ينزل الى عباده ليقضى بينهم وكل امة جاثية ــ اى لا يصيب الأرض من كل فرد منها الا ركبتاه واطراف انامله على هيئة المذنب الخائف المنتظر جزاءه ــ فاول من يدعى به : رجل جمع القرآن .. ورجل قتل فى سبيل الله .. ورجل كثير المال فيقول الله عز وجل للقارىء وهو كل من قرا القرآن أو سمعه أو درسه أو حفظه : الم اعلمك ما انزلت على رسولى ؟ قال : بلى يا رب .. قال : فما عملت فيما علمت ؟ قال كنت اقول به اناء الليل وآناء النهار .. فيقول الله عز وجل له : كذبت وتقول الملائكة : كذبت .. ويقول الله تبارك وتعالى : بل اردت ان يقال : ان فلانا قارىء .. وقد قيل ذلك .

ويؤتى بصاحب المال .. فيقول عز وجل : الم اوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج الى أحد ؟ قال : بلى يا رب .. قال فماذا عملت فيما آتيتك ؟ قال : كنت أصل الرحم وأتصدق .. فيقول الله تبارك وتعالى : بل أردت أن يقال فلان جواد .. وقد قيل ذلك ..

ويؤتى بالذى قتل فى سبيل الله فيقول الله له : فى ماذا قتلت ؟ فيقول : أى رب أمرت بالجهاد فى سبيلك فقاتلت حتى قتلت .. فيقول الله : كذبت وتقول الملائكة كذبت .. ويقول الله بل اردت ان يقال : فلان جرىء ، وقد قيل ذلك .

ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتى فقال : يا ابا هريرة اولئك الثلاثة اول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة) .

فاذا نظرنا الى هؤلاء الثلاثة عرفنا ان الذى اضاع اجورهم أن قلوبهم خلت من الرغبة فى رضوان الله الأكبر ، وشغلها التطلع الى ثناء الناس ، وهذا هو الرياء وهؤلاء هم المراءون .

ان الذى يعمل ابتغاء ثناء الناس سوف يترك العمل حيث لا يراه الناس ، وحيث ينقطع ثناؤهم عليه ، وقد ينقلب حيث لا يراه الناس شيطانا مريداً ، أما الذى يعمل ابتغاء مرضاة الله فان دافعه الى العمل لا ينقطع مدده ، لأن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، ولأن ما عند الله فى يقين المخلص خير وأبقى .

فالمخلص يعمل دائما لأن الله يرى .. سواء عليه أرآه الناس أم لم يروه ، وسواء أعرفوا له بذله أم جحدوا فضله ، فهو يقول : كفى بالله عليما ..

(د) التدريب العملى على الانضباط :

ولا يكتفى الاسلام ببناء الانضباط على الأساس العقلى العميق فحسب ، بل يعنى أيضـــا بالتدريب العملى على الانضباط حتى يصبح لدى الفرد عادة وسجية . ولذلك نرى الاســلام يعنى بالتربية السلوكية فى عباداته لكى يغرس فى الفرد عادة السلوك السليم وينميها حتى تصـــبح جزءا من كيانه لا يتخلى عنها أمام أى ظرف من الظروف .

فالصلاة لا يمنع من أدائها مرض أو دخول فى معركة ، لأنها ذكر الله وقد أمرنا أن نذكر الله قياما وقعودا وعلى جنوبنا ، فاذا نادى المؤذن : حى على الصـــلاة ، لبى المسلمون دون حاجة الى من يرغمهم لأنها صارت عادة .

وفى أثناء الصلاة يتعلم المسلمون تسوية الصفوف حيث جعلت من تمام الصـــلاة ، ويتقدم الامام صفوف المصلين ، ولا دخول فى الصـــلاة الا بدخوله ، ولا ركوع الا بركوعه ولا سجود الا بسجوده ، ولا سلام الا بسلامه والا بطلت صلاتهم . ويتكرر هذا المظهر فى كل يوم خمس مرات وفى كل مرة يتأكد الشعور بالانضباط .

كذلك فريضة الصيام تعودنا على الانضباط النابع من داخل الذات وليس من خارجها ، فالصـــيام والامساك فى

رمضان عن المشتهيات ، وضبط النفس عن متطلباتها والصمود أمام هذه المتطلبات بحزم وعزم واصرار من فجر كل يوم الى غروب شمسه ، ومن أول يوم فى رمضان الى آخر يوم فيه ، لهو نوع من التدريب على الانضباط الذاتى ، وامتحان قاس لعزيمة الانسان وقوة ارادته ومبلغ استعداده للصمود والتضحية من أجل عقيدته ومبادئه وأهدافه العليا وغاياته السامية .

فاذا ما اذن المؤذن معلنا بزوغ الفجر امتنع المسلمون عن طعامهم وشرابهم « ذاتيا » لأن قلوبهم وعقولهم قد ذاقت حلاوة الايمان فدفعتهم الى المسارعة فى تنفيذ أوامر الله ، ثم يأكل الجميع وقت النداء بأن الشمس قد غابت وحان موعد الافطار ، وهكذا يكون الصيام بأمر واحد ، وفى وقت واحد ونهاية واحدة .

وفى الزكاة طاعة الله باخراج الجزء الواجب اخراجه بلا رقابة من أحد وبالقدر المحدد .

وفى الحج يقف المسلمون جميعا دون مخالفة فى مكان واحد هو جبل عرفات وبدونه لا يكون حجا ، فالجميع فى وقت واحد وزى وأحد وتلبية واحدة هى هتاف واحد الهى رائع « لبيك اللهم لبيك » .

* * *

٣ ــ الطــاعة :

والطاعة التى تقع على رأس قائمة التقاليد العسكرية وتشكل ركنا أساسيا فى بنــاء الانضباط يأمر بها الاســلام ويوضــح فلسفتها ومغزاها الاجتماعى ، فليست الطــاعة « خضوعا للسلطة » بل هى « ضرورة اجتماعية » لصالح الجماعة ترتبط ارتبــاطا وثيقا بالقيــادة التى هى الأخرى « ضرورة اجتماعية » لصالح الجماعة ، فالله تعالى يقول :

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » . (النساء ٥٩)

وأولوا الأمر هم الذين ائتمنهم الله على من هم فى رعايتهم ممن هم دونهم فى الرتبة ، ويقول جل شأنه :

« ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » . (النساء ٦٩)

ويوضح الرسول عليه الصلاة والسلام ضرورة القيادة لصالح الجماعة فيقول : **(اذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم)** .

كما يأمر بالطاعة فيقول : **(اسمعوا وأطيعوا وان ولى عليكم عبد حبشى كان رأسه زبيبة)** .

لكن الطاعة التى يريدها الاسلام ليست عمياء بل هى

الطاعة الواعية البصيرة (**لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق**) ودعم الاسلام الطاعة عمليا فى العبادات كما ذكرنا .

٤ ــ النظام والنظافة وحسن المظهر

وهذه التقاليد العسكرية ، من الأمور التى اهتم بهــا الاســـلام وحث عليها حتى ألحقها بآداب العبادات ، يقول الله تعالى :

« يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » . (الأعراف ٣١)

والنظافة والطهــارة من مظاهر المسلمين كالوضــوء والاغتسال كما أخبر الله تبارك وتعالى فقال :

« لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » .
(التوبة ١٠٨)

وليس هذا فحسب ، بل كانت أول أوامر الرســالة دعوة الى الطهارة كما يفهم من قوله تعالى :

« يا أيها المدثر ، قم فانذر ، وربك فكبر ، وثيــابك فطهر » . (المدثر ١ ــ ٤)

ويوجه الرسول صلى الله عليــه وسلم المسلمين الى التزام المظهر الحسن فيقول :

ــ **(ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده) .**

ــ **(أصلحوا رحالكم ولباسكم حتى تكونوا فى الناس كأنكم شامة)** . (الرحال جمع رحل وهو المسكن وما فيه من أثاث ، والشامة هى الخال أو الحسنة التى تكون فى الخد وهى من علامات الجمال) .

وكره الاسلام للمسلم أن يفرط فى مظهره وأن يهمل هيئته حتى يكون زريا فى أعين الناس ، فقد رأى النبى صلى الله عليه وسلم رجلا مضطرب الشكل منتفش الشعر فقال : **(أما وجد هذا ما يسكن به راسه ؟)** فلما أصلح الرجل شأنه قال عليه السلام : **(هذا خير من أن ياتى أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان) .**

كذلك يحض الاسلام على العناية بنظافة الثكنات ومظهرها وتهويتها وتعريضها للشمس حتى تكون صحية ولنبعد عن التشبه باليهود حيث أخبر النبى صلى الله عليه وسلم فقال **(نظفوا افنيتكم ولا تشبهوا باليهود) .**

٥ ــ الاحترام المتبادل بين الرتب واحترام الأقدمية

وهى من التقاليد العسكرية أيضا ، وتعدها توجيهات الاسلام من العلاقات التى تربط أفراد الجيش برباط قوى لأنهم اخوة متحابون تجمعوا حول هدف واحد ، قال تعالى :

((انما المؤمنون اخوة)) .

وعلى أساس هذه العلاقة يتصرف الأفراد ، فيكون هناك توقير للكبير رتبة ، واحترام للصغير وعطف عليه يدلنا على ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم **(أنزلوا الناس منازلهم)** .

وقد جلس الرسول عليه الصلاة والسلام يوما وحوله اصحابه ، فدخل على بن أبى طالب رضى الله عنه فلم يجد مكانا يجلس فيه ، فأفسح له أبو بكر مكانا بجوار الرسول وناداه أن يجلس فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : **(يا أبا بكر ، انما يعرف الفضل لأهل الفضل ، ذووا الفضل)** .

وقد أمر الله بعدم رفع الصوت على القائد الأول للمسلمين فقال :

« يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » . (الحجرات ٢)

٦ ـ العناية بالأسلحة والمعدات

وهذا الواجب لا يؤديه المسلم لأن « الأوامر العسكرية تقضى بذلك » بل يؤديه وفاء بالأمانة التى فى عنقه والتى يأمره دينه أن يؤديها وأن يصونها ومحافظة منه على أدوات « القوة » التى أمر الله باعدادها ، وحرصا منه على أدوات « الجهاد فى سبيل الله » وظيفته الشريفة التى كرمه الله بأن اختاره لها « **وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم** » ،

واحساسا منه وادراكا لعواقب اهمال هذا الواجب كما أخبر الله تعالى فى قوله :

« ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » . (النساء ١٠٢)

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة حيث كان يناول ابنته فاطمة سيفه ويقول : (**اغسلى عن هذا دمه يا بنية فوالله لقد صدقنى اليوم وناولها على بن أبى طالب سيفه وقال : وهذا أيضا فاغسلى عنه دمه فوالله لقد صدقنى اليوم**) .

٧ ــ الأخلاق الفاضلة

الأخلاق الفاضلة هى احدى خصائص المجاهدين فى سبيل الله ، والتى يتميزون بها عن غيرهم ، والتى مكنت لجند الله فى الأرض وأتاحت لهم الظفر بأعدائهم وهيأت سبيل النصر .

وليس كالأخلاق النظيفة سبيلا الى النصر ، وليس كالابتعاد عن الآثام والمعاصى طريقا الى العزة والمنعة ، وهو بعض ما يفهم من قول الله تعالى :

« ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز ، الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .

(الحج ٤٠ ، ٤١)

« وعـــد الله الذين آمنـــوا منـــكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنـــا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا » . (النور ٥٥)

ان هذا المنهج الأخلاقى الواضح يقوم على رعاية حق الله والغـــيرة على محارمه ، والابتعاد عن معاصيه وأداء فرائضه ، وبذل النصح لله ورسوله ، انه سلسلة من مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب تنبع كلها من عبادة الله وتقواه يتم بها التمكين فى الأرض والنصر لجند الله .

وقد تولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـــ الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وأثنى على خلقه بقوله جل شـــأنه « **وانك لعلى خلق عظيم** » والذى قالت السيدة عائشة حين سئلت عن خلقه « كان خلقه القرآن » ـــ ارشاد المسلمين الى الفضائل ومكارم الأخلاق وتجلى ذلك بكل معانيه فى معاملته لهم بأخلاقه وفضائله ، فكان لهم خير أسوة يحرصون عليها الحرص كلـــه ، بل كان يتعهدهم بالارشـــاد الى الخلال الحميدة ويمرنهم على الأخذ بهـــا حتى تصير ملكة وخلقا ، وحتى يتنافس فيها المتنافسون ، انظر الى قوله صلى الله عليه وسلم :

ـــ (ثلاث من كن فيه استوجب الثواب ، واستكمل الايمان : خلق يعيش به فى الناس ، وورع يحجزه عن محارم الله ، وحلم يرد به جهل الجاهل) .

وقوله : (**ان أحبكم الى واقربكم منى منزلة يوم القيامة ، أحاسنكم أخلاقا ، الموطاون أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون**) (١) .

— (**ان شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره**) .

— (**رأس العقل بعد الايمان بالله التودد الى الناس**) .

— (**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**) .

وقصة المسلمين الأوائل الذين هاجروا بدينهم الى الحبشة حتى لا يفتنهم الطغاة الظالمون تستحق الذكر فى هذا المقام ، ذلك لأنهم لما سافروا الى الحبشة أرسلت قريش وراءهم وفدا فى محاولة لاعادتهم الى مكة ليعذبوهم من جديد ، والتقى الوفد بالنجاشى وقال له عمرو بن العاص :

انه قد لجأ الى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا اليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم ، وعشائرهم لتردهم عليهم ، فهم أعلى بهم عينا (أى أبصر بهم) وأعلم بما عابوا عليهم .

---

(١) الكنف يعنى الجانب ، وموطا يعنى منخفض ، وموطا الكنف يعنى منخفض أو لين فالموطاون اكنافا تعنى غير المتعالين والذين لا يتسمون بالغلظة .

فلما سمع النجاشى كلامهم رأى من الحكمة الا يسلم اليهم المهاجرين دون أن يسمع كلامهم وحجتهم ، فأرسل الى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم فلما جاءوا قال لهم : ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا دين أحد من هذه الملل ؟ فكان الذى كلمه : جعفر ابن أبى طالب فقال له :

« أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية : نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الرحم ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا ، نعرف نسبه ، وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ..

أمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم ، والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة . وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة . « وعد عليه أمور الاسلام » .

فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله .

فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا .. فعدا علينا قومنا : فعــذبونا وفتنونا عن ديننا ، ليردونا الى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا

وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك » .

وحينما قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :

« يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال ، ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم مائة يغلبوا الفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » .

(الأنفال ٦٥)

اراد الله من هؤلاء المؤمنـــين أن يحققـــوا فى أنفسهم ما يجعلهم أهلا لتلك الغلبة الفذة والانتصـــار الفريد ، من التربية الخلقية والعسكرية ، والاقدام على التضحية ، واتقان الجهاد ، والثبات فى مواطن البأس ، والتمسك بمبـــادىء الفروسية الاسلامية التى لا يذل صاحبها ولا يخزى ، وهو فى الوقت نفسه لا يضل ولا يطغى .

ان جند الله ، دائما مع الله ، تحارب بالأخلاق وتنتصر بالفضائل وتتخذ من القيم والمثل العليا وســائل للنصر ، فالصلاة مثلا ـــ وهى عماد الدين ـــ لا تسقط فى المعركة بل تزداد تأكيدا ولهذا شرعت صلاة الخوف ، جماعة تحرس وجماعة تصلى ، ثم يتم بينهما تناوب محكم وفق خطة عملية ذكرها القرآن .

ولقد شهد أعداء الاسلام للمجاهدين المسلمين سواء كانوا قادة أم جنودا بالعفة والاستقامة والطهر وتقوى الله ،

وأكدوا أن سلاح الأخلاق كان أقوى الأسلحة فى كسب المعارك لجند الله ، وأن انتصارات الاسلام وفتوحاته الواسعة ترجع فى جوهرها الى تلك الأخلاق المتينة .

وقد أرجع الفيلد مارشال مونتجومرى(١) بلوغ الفتوحات الاسلامية الى ذلك المدى العظيم الى أن المسلمين « كانوا يستقبلون فى كل مكان يصلون اليه كمحررين للشعوب من العبودية . وذلك لما اتسموا به من تسامح وانسانية وحضارة ، فزاد ايمان الشعوب بهم ، علاوة على تميزهم فى نفس الوقت بالصلابة والشجاعة فى القتال ، وقد ظلت جميع المناطق التى فتحها العرب فى القرن السابع حتى يومنا هذا — ما عدا أسبانيا — تحتفظ بالدين الاسلامى وكذلك بالعادات والتقاليد والتراث الاسلامى »(٢) .

ولأهمية المنهج الأخلاقى لجند الله ، نرى فى آيات الجهاد فى القرآن الكريم الأمر بتقوى الله والنهى عن مخالفة امره ، ونرى أن أول وصية كانت تصدر الى المحاربين والقادة من الرسول القائد صلى الله عليه وسلم كانت وصية بتقوى الله والنهى عن الظلم والغدر والتمثيل بالقتلى وقتل الضعفاء والولدان .. الخ كما سبق أن ذكرنا .

وقد سار الخلفاء الراشدون على هذا النهج ، ونذكر

---

(١) الحرب عبر التاريخ — للفيلد مارشال مونتجمرى .

(٢) انظر أيضا الفصل السادس . الحرب العادلة فى الاسلام وآثارها الاستراتيجية .

فى هذا المقام على سبيل المثال وصية عمر بن الخطاب رضى الله عنه لقائده سعد بن أبى وقاص وجنده :

(آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فانها أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى من عدوكم ، فان ذنوب الجيش أخوف عليه من عدوه ، وانما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، والا ننصر عليكم بفضلنا ودينا لم نغلبهم بقوتنا) ..

وهكذا ترجم منهج الاسلام الأخلاقى الى سلوك وعمل ، وكان الالتزام به صورة رائعة ونموذجا رفيعا للانضباط على خط الفضيلة والبعد عما يغضب الله ، فكأن التقوى هى خط الدفاع الأول ضد الهزيمة والانحلال والفشل .

الخلاصـــة :

١ ــ ان منهج الاسلام فى التربية السلوكية يغرس فى المسلم تقاليد الجندية وعلى رأسها صفة « الانضباط الذاتى » الذى يدفعـــه الي الطاعة والسلوك السليم بصورة غريزية وبلا رقابة من أحد وفى كل الظروف وتلك أرقى مراتب الانضباط العسكرى .

٢ ــ وانه اذا كانت النظم والدســاتير الموضوعة فى ارقى جيوش العالم تعتمد فى غرس الانضباط فى نفوس رجالها على دوافع سياسية أو ايديولوجية أو مادية أو قهر السلطة أو التخويف من العقاب ، فان دوافع الاســلام أكثر عمقا

وأقوى أثرا ، لأن جذورها تنبت فى التكوين النفسى والاجتماعى السليم ، وترسخ فى وجدانه عن اقتناع وايمان لأنها وسيلة الى مرضاة الله :

(أ) فالحرية والكرامة الانسانية هما المدخل والأساس لبناء الانضباط « الذاتى » الذى لا يصل الاحساس به فقط الى مرتبة « العادة » وهى منتهى أمل أرقى النظم الموضوعة ، بل يصل به فى الاسلام الى درجة « التـــذوق » لأنه قربى الى الله .

(ب) وتنمية الضمير الدينى تنفى من حساب المســلم الحاجة الى رقابة أحد عليه ، وتدفعه الى أن يرعى الله فى عمله لأنه هو الرقيب المطيع .

(ج) وتقدير المسئولية واخلاص العمل لله يدفع المسلم الى اتقان عمله على أكمل وجه دون انتظار لأحد يحفزه اليه أو يراقبه أو يثنى عليه .

(د) والتدريب العملى على الانضباط يترجم المنهج الى سلوك وعمل ، حتى يصبح الانضباط سجية وملكة وعادة .

(هـ) وربط التقاليد العسكرية بتوجيهات الاسلام قمة فى الاقتناع بهدفها ومغزاها وأعظم قوة دافعة على الالتزام بها .

(و) وبالأخلاق الفاضـــلة يحقق المسلمون فى أنفسهم ما يجعلهم أهلا للمكانة العليا بين الناس ، وللانتصار المؤزر على أعدائهم ، فان من يحاربون لله وفى ســـبيل الله يبحثون

دائما عما يرضى الله ، فلا يقترفون معاصيه وهم يحاربون فى سبيله .

٣ — ان منهج الاســلام فى غرس الانضباط لا يتعلق بالجيش وحــده ، بل يشمل الأمة بأسرها ، وهكذا يرسى الاسلام أساس الكيان العسكرى للأمة الاسلامية(١) .

* * *

(١) انظر « النظرية الاسلامية فى بناء الكيان العسكرى للامة » فى سلسلة نظريات العسكرية الاسلامية .

آداب الحـرب

سبق الاسلام بتقرير آداب الحرب :

كان للاسلام السبق فى ايجاد نظام شامل للحرب يتسم بالرحمة والعدل وحسن المعاملة ، وهذا ثابت مما تضمنه القرآن والسنة العملية والقولية وأعمال الخلفاء من تقنين شامل للحرب منذ ثلاثة عشر قرنا أو يزيد . فى حين أن القواعد المنظمة للحرب فى القانون الدولى الأوربى بدأت منذ ثلاثة قرون وأخذت من الشريعة الاسلامية وظلت لدى أوروبا قواعد عرفية بحتة حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى حيث بدأت الدول تدوينها فى معاهدات أولها تصريح باريس البحرى سنة ١٨٥٦ ، ثم اتفاقية جنيف لمعاملة جرحى ومرضى الحرب سنة ١٨٦٤ . ثم تصريح سانت بطرسبرج بتحريم رصاص دمدم المتفجر ثم اتفاقيتا الحرب البرية والبحرية من اتفاقات مؤتمر لاهاى فى سنة ١٨٩٩ وسنة ١٩٠٧ . واتفاقية واشنجتون فى سنة ١٩٢٢ عن حرب الغواصات والغازات . ثم اتفاقات جنيف الأربعة سنة ١٩٤٩ الخاصة بمعاملة جرحى الحرب وحماية الأشخاص المدنيين . ويلاحظ أنها لا تطبق الا فى حالة قيام الحرب بين دولتين موقعتين على المعاهدة أو الاتفاقية والا فلا رحمة ولا قواعد للحرب بل القتل والنهب والسلب للمحاربين وللمدنيين غير المحاربين .

وكان العمل ساريا الى عهـــد قريب على رد مخالفة قواعد الحرب بالمعاملة بالمثـــل فلو قامت حرب بين دولتين موقعتين على اتفاقات تقضى بتنظيم حالة الحــــرب وأخلت احداهما فللأخرى أن تعاملها بالمثل أو تهدد بالمعاملة بالمثل لكن المسلمين لا يلجأون الى المعاملة بالمثـــل فيما حرمه الله عليهم من المثلة أو قتل النساء وغير ذلك . وبذلك لا تزال قواعد الاسلام أسمى بكثير من قواعد القانون الدولى(١) .

فنظام الحرب فى الاســـلام من حيث وجوب اعلانها ، وعدم قتـــل الشيوخ والنساء والأطفـــال ، ومن حيث أنها لا تشن للبغى والعدوان ونظام الأسرى فى الاسلام من حيث عدم القتل(٢) وجواز الفداء والمن والتبادل كل ذلك أسبق

---

(١) الشريعة الاسلامية والقانون الدولى العام — المستشار على على منصور .

(٢) كان بعض أمراء الجند فى الحملات الصليبية يقتلون الاسرى من المسلمين بل كانوا يقتلون الرسل الذين يفدون اليهم ، وكان قواد المسلمين لا يعاملونهم بالمثل امتثالا لاوامر دينهم وما نص عليه القرآن من أن تؤمن الرسل حتى يبلغوا مامنهم وقد اعترف بذلك بعض كتاب الغرب امثـــال جوستاف لوبون حيث قال فى كتابه « حضارة العرب » ان العالم لم يعرف فاتحا ارحم من المسلمين ، وفى صـــدد قتل الاسرى المسلمين فى الحـــرب الصليبية قال المؤلف كان اول ما بدأ به ريتشارد قلب الاسد الانجليزى ، انه قتل امام معسكر المسلمين ثلاثة آلاف اسير سلموا اليه انفسهم بعد ان قطع على نفسه العهد بحقن دمائهم ثم أطلق لنفسه العنان باقتراف القتل

واكمل مما أتت به قواعد القـــانون الدولى الموضوعة حديثا بل ان ما فى تلك القـــواعد من جلال مرجعه الى الاســـلام وانتشار تعاليمه ، فقد كانت الحضارة ألاسلامية فى الأندلس حلقة الاتصال وواسطة التطعيم .

حرب مثالية :

ان تعريف الحرب العادلة(١) كما تنص عليـــه مصادر القانون الدولى بالرغم من أنه حبر على ورق بالنسبة لكافة الحروب قديما وحديثا الا أنه قاصر عن الوفاء بحق تعريف القتال فى ألاسلام .

ان أصـــح تعبير يمكن اطلاقه على تلك الحرب هو : الحرب المثالية .

وهى مثالية لأن أهدافها ألدفاع عن حرية الرأى وتوطيد

والسلب مما أثار صلاح الدين الايوبى النبيل الذى رحم نصارى القدس فلم يمسهم بأذى والذى أمد فيليب قلب الاسد بالمرطبات والادوية والازواد اثناء مرضهما » . وختم المؤلف قوله : ان « الهوة سحيقة بين تفكير الرجل المقـــدس وعواطفه (يقصـــد صلاح ألدين) وبين تفكير الرجل المتوحش ونزواته » . ومن هنا يتضح أن المسلمين فى حروبهم لم يكونوا يقابلون هذه الجرائم الوحشية بمثلها ويقولون « وفاء بغدر » اى مهما غدروا فلا نقابل غدرهم بغدر بل نقابله بالوفاء لعهودنا ومثلنا واوامر ديننا .

(١) الرسول القائد ــ اللواء الركن محمود شيت خطاب .

أركان الاســـلام ، ولأنهـــا تصـــون أرواح وأموال الأبرياء والضعفاء ، وتعطف على الأسرى والرهائن ، وتواسى المرضى والجرحى ، ولا تمثل بالقتلى بل تدفنهم كقتلاها ولا تثـــيرها الأغـــراض الشخصية ولا العصـــبية ولا المنـــافع المـــادية ولا الاستغلال والاستعمار . فاذا لم تكن هذه الحرب مثالية ، فأى حرب فى التاريخ كله يمكن أن يطلق عليها هذا التعبير ؟

فلا عجب اذن اذا استطاعت هـــذه الحرب أن تسيطر على العقول بالمثل العليا قبل أن تسيطر على الحصون والقلاع بالسلاح والرجال .

ان هذه الحرب المثاليـــة جعلت جراح المغلوبين تلتئم بسرعة فينضمون طائعين الى الغالبية ليكونوا جميعا تحت راية واحدة ، هى راية الاســـلام . ولو كانت حربا ظالمة لما دام الظلم ، لأن الظلم لا يدوم وان دام دمر الغالب والمغلوب ولكنها كانت حربا عادلة الى حدود المثالية فاستجاب العرب لأهدافها العالية ثم حملوا رسالة تلك الأهداف الى العالم ، وأستجاب لها الفـــرس والروم وكثير من الأمم والقوميات الأخرى ثم حملوا بدورهم مشعل هدايتها شرقا وغربا فاستنار الشرق بنور الاسلام على حين كان فى الغرب دياجير الجهل والظلام .

ونذكر هنا ما قاله الفيلد مارشال مونتجمرى فى كتابه « الحرب عبر التاريخ » عن انسانية حروب الاسلام : « ان المسلمين كانوا يستقبلون فى كل مكان يصلون اليه كمحررين

للشعوب من العبــودية وذلك لما اتسموا به من تستــامح وانسانية وحضارة ، فزاد ايمان الشعوب بهم ، علاوة على تميزهم فى نفس الوقت بالصلابة والشجاعة فى القتال ، وقد أدى كل هذا الى اعتناق معظم الشعوب ألتى انتصر عليها العرب الدين الاسلامى .. » ولا شك أن ذلك حق ينطق به الواقع التاريخى ويدل عليه بقاء الاسلام عند هذه الشعوب . ذلك لأن جوهر العقيدة العسكرية الاسلامية « عقيدة الجهاد فى سبيل الله » ليس مادة صماء كغيرها من العقائد فى الشرق والغرب ، بل هو مادة وروح ، فيــه الدعوة الى الســلام والخير ، والى الحق والعدل . وفيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وفيه البعد عن الاستغلال والاستعباد ، والجور والغدر ، وكلمة سبيل الله توحى بكل هذه القيم والمقاصد السامية النبيلة ويدخل فى مفهومها كل ما شرعه الله وارتضاه .

وقال النبى عليه الصلاة والسلام (**أنا نبى المرحمة وأنا نبى الملحمة**) .

والمرحمــة والملحمة متلاقيتان ، فما كانت الملحمة فى الاسلام الا لأجل المرحمة ، لأن المرحمة الحقيقية فى هذا العالم هى قطع الفساد ومنع الشر ، وذلك لا يتحقق الا بالملحمة ، فقد تعينت سبيلا للمرحمة .

منع قتل الضعفاء وغير المقاتلين ومنع التخريب :

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله

لجيشه (**انطلقوا باسم الله تعالى لله وعلى بركة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا ولا امرأة ولا تغلوا وضموا غنائمكم . وأصلحوا وأحسنوا ، ان الله يحب المحسنين**) وقوله عليه السلام (**سيروا باسم الله في سبيل الله وقاتلوا أعداء الله ولا تغلوا (أى تخونوا) ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الذرية**)) .

وقال عليه السلام لخالد بن الوليد (**لا تقتل ذرية ولا عسيفا**) أى أجيرا .

وهكذا نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن قتل النساء والذرية والشيوخ الذين لا يشتركون في القتال ، والعسفاء وهم العمال الذين ليس لهم في الحرب ناقة ولا جمل .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغضب اذا بلغه أن بعض قواده قتلوا أحدا من هؤلاء الضعفاء ، كما روى أن أحد قواده قتل بعض الأطفال فوقف يقول لجنده (**ما بال أقوام تجاوز بهم القتال حتى قتلوا الذرية ، ألا لا تقتلوا الذرية ، ألا لا تقتلوا الذرية**) بل انه صلى الله عليه وسلم كان يظهر الاشفاق على أعدائه اذا رأى فيهم ضعفا عن قتاله كما حدث عام الحديبية ..

أن الحرب في الاسلام ليست حربا للافناء ، وانما هى لرد الاعتداء وتأمين الدعوة ، ومن ثم كان النهى عن قتل العمال الذين لا يشتركون في الحرب ، وقتل الأجراء لأنهم

لا يقاتلون وهم بناة العمران والحارثون الزارعون ، والحرب الاسلامية ليست لازالة العمران وتعويق اسباب الحياة ، ثم ان هؤلاء العمال كانوا مستضعفين تحت سلطان الغاشمين وهم فريسة الظلم ، فلا يصح أن يكونوا وقودا للحرب يكتوون بنارها وهم ليسوا من جناتها .

كذلك نهى الاسلام عن قتل رجال الدين ان لم يحاربوا ، روى ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا بعث جيوشا قال (**لا تقتلوا أصحاب الصوامع**) يعنى الرهبان .

حسن معاملة الأسرى :

يأمر الاسلام باكرام الأسرى ويحمد ذلك من المؤمنين الصادقين كما يفهم من قول الله :

« ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا »
(الانسان ٨)

وقد حدث أن وقع ثمامة بن اثال اسيرا فى أيدى المسلمين فجاءوا به الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال (**أحسنوا اساره**) وقال (**اجمعوا ما عندكم من طعام فابعثوا به اليه**) وكانوا يقدمون اليه لبن ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفى غزوة بدر قال الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه بعد أن فرق بينهم أسرى العدو ليحرسوهم فى رحلة

العودة الى المدينة (**استوصوا بهم خيرا**) ويقول أبو عزيز ابن عمير وكان من أولئك الأسرى « كنت فى رهط من الأنصار حين أقبلوا بى من بدر ، فكانوا اذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصونى بالخبز وأكلوا التمر ، لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم اياها بنا ، ما تقع فى يد رجل منهم كسرة خبز الا نفحنى بها فأستحى فأردها على أحدهم فيردها على ما يمسها » .

وبين الاسلام أن التصرف مع الأسرى يكون اما باطلاق سراحهم والعفو عنهم وهو « المن » واما بأخذ العوض اما بالمال أو تبادل الأسرى وهو « الفداء » قال تعالى « **حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها** » (١) . (محمد ٤)

وقد دعا الرسول صلى الله عليه وسلم ثمامة بن أثال (الأسير المذكور آنفا) الى الاسلام فأبى وقال له : ان ترد الفداء فسل ما شئت من المال فأطلق النبى عليه الصلاة والسلام سبيله من غير فداء ثم دخل بعد هذا المن فى الاسلام.

ووقعت ابنة حاتم الطائى فى أيدى المسلمين وانزلت

---

(١) كان أسرى الحرب فى العصور الوسطى والغابرة يقتلون بل ان الديانة اليهودية على ما ورد فى التلمود كانت تقضى بالا يقتل الاسرى فحسب بل يقتل جميع النساء والاطفال والحيوانات التى توجد فى المدن المستولى عليها .

بمكان يمر به النبى صلى الله عليه وسلم فتعرضت له وقالت : هلك الوالد وغاب الرافد (تعنى أخاها عديا) فامنن على من الله عليك ، فقال : قد فعلت فلا تعجلى بخروج حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك الى بلادك وأقامت حتى قدم رهط من قومها فكساها رسول الله صلى الله عليه وسلم وحملها وأعطاها نفقة فخرجت معهم .

وأطلق صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة جماعة من قريش وقعوا فى الأسر فكانوا يدعون الطلقاء ، بل وقف صلى الله عليه وسلم بين قريش ، وقال : يا معشر قريش .. ماذا تظنون انى فاعل بكم .. فقالوا : خيرا .. أخ كريم ، وابن أخ كريم . فقال اذهبوا فأنتم الطلقاء .

منع التمثيل بجثث القتلى أو تعذيب الجرحى :

قال عليه الصلاة والسلام (**اياكم والمثلة**) وقد كان المعتاد فى هذه الأزمنة أن يمثل المنتصر بجثث عدوه المغلوب بقصد التشفى ومن ذلك جدع الأنف وصلم الأذن وبقر البطن وغيرها ، لكن النبى الكريم وضع الأسس الكريمة لمعاملة قتلى العدو فلم يفعل ما اعتاد الناس فعله فى هذا الزمن فنهى عن المثلة ونهى عن تشويه الأجسام وأوجب على المسلمين دفن قتلى العدو حتى لا يتركوهم نهبا لوحوش الأرض أو وحوش الطير ، فقد أمر عليه السلام بوضع جثث قتلى بدر من المشركين فى القليب وهو بئر جاف .

ولقد نهى عليه السلام عن تعذيب الجرحى ، فاذا كانت

قوة الجريح لا تعينه على المقاومة منــع قتله وأمر بأن يبقى ويداوى ويفدى أو يمن عليه (معاملة الأسير) وفى ذلك قال عليه السلام (**لا تعذبوا عباد الله**) .

الوفاء بتامين المحارب :

ومن آداب الحرب فى الاسلام انه اذا أعطى الأمان لأحد المحاربين من الأعداء وجب احترام هذا التأمين ولا يجوز لأحد أن يتعــرض لذلك المحارب بأذى ، والى هذا يشــير قوله صلوات الله عليه (**ويسعى بذمتهم أدناهم**) وقد أمضى النبى صلى الله عليه وسلم تأمين أم هانى بنت أبى طالب لرجل من المشركين وقال لها (**قد أجرنا من امنت يا أم هانىء**) وفى ذلك يقول الله تعالى :

« وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » . « التوبة ٦)

مجاملة رسل العدو وعدم التعرض لهم بأذى :

قد يأتى رسول العدو فى شأن صلح أو غيره مما فيه تخفيف شر الحرب فمن حسن الرأى الا يتعرض للرسل بأذى وأن يكونوا فى أمن حتى يعودوا الى قومهم ، فان التعرض لهم بأذى يقطع اتصال الفريقين ويسد طريق المفاوضات التى يتوصل بها الى عدم الدخول فى الحرب أو انهائها اذا كانت ناشبة ، ومكارم الأخــلاق تأبى أن يتعرض للرسول بأذى ولو أرسله قومه لابلاغ ما عزموا عليه من محاربتنا أو صدر

منه كلام فى تعظيم أمر قومه بقصد الفخر أو الارهاب ، وقد جرى نظام الاسلام فى الحرب على هذا الأدب المقبول . قدم أبو رافع بكتاب من قريش الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما راى رسول الله وقع فى قلبه الاسلام ، فقال : يا رسول الله : أنى والله لا ارجع اليهم أبدا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **(أما انى لا أخيس بالعهد ولا احبس البرد ولكن ارجع فان كان فى قلبك الذى فى قلبك فارجع)** ، قال : فرجعت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واسلمت .

وسمع النبى عليه الصلاة والسلام كلاما من رسولى مسيلمة لم يرضه فقال لهما : **(لو كنت قاتلا رسولا لقتلتكما)** فصارت سنة قولية وعملية فى أن الرسل آمنون حتى يبلغوا الرسالة ويعودوا من حيث اتوا ، وأمانهم هذا بغير شرط ولا يحتاج الى كتابة .

سماحة الاسلام مع المغلوب :

لا يقول الاسلام اذا انتصرت جيوشه « ويل للمغلوب » لأنه لم يحارب لعصبية ولا لنزعة عنصرية أو لانحياز اقليمى او لغلب اقتصادى ولكنه يحارب لمعنى انسانى عال وهو فتح الباب للحرية الدينية وللمبادىء العالية لتسير فى طريق الدعوة فلا يورث الأحن بمثل تلك الكلمات « ويل للمغلوب » ولكن يقول « رحمة للمغلوب » واعتبر ذلك بما فعله النبى

عليه السلام مع قريش فقد قال بعد أن غلبهم ما تظنون انى فاعل قالوا أخ كريم ، وابن أخ كريم قال : أقول لكم ما قال أخى يوسف لاخوته : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

والجزية ليست عوضا ماليا من دم أو عقيدة وانما هى علامة على الخضوع لسلطان الدولة ، وهى لحماية المغلوبين فى أموالهم وعقائدهم وأعراضهم وكرامتهم وتمكينهم من التمتع بحقوق الرعاية مع المسلمين سواء بسواء (١) ، يدل على ذلك أن جميـــع المعاهدات التى تمت بين المســـلمين وبين المغلوبين من سكان البلاد كانت تنص على هذه الحماية فى العقائد والأموال وقد جاء فى عهد خالد بن الوليد لصاحب قس الناطف « انى عاهدتكم على الجزية والمنعة فان منعناكم فلنا الجزية والا فلا حتى نمنعكم » وقد رد خالد بن الوليد على أهل حمص وأبو عبيدة على أهل دمشق وبقية القواد المسلمين على أهل البلاد الشامية المفتوحة ما أخذوه منهم من الجزية حين اضطر المسلمون الى مغادرتها قبيل معركة اليرموك وكان مما قال القـــواد المسلمون لأهل تلك المدن : « انا كنـــا قد أخذنا منكم الجزية على المنعـــة ونحن الآن عاجزون عن حمايتكم فهذه هى أموالكم نردها اليكم » .

لقد كان فرض الجزية فى الاســـلام أبعد ما يكون عن

---

(١) الرسول القائد ــ للواء الركن محمود شيت خطاب .

الاستغلال والطمع فى اموال المغلوبين اذا كانت تفرض بمقادير قليلة على المحاربين والقادرين على العمل فحسب وكانت ثلاثة أقسام : اعلاها وهو (٤٨) درهما فى السنة على الأغنياء (حوالى دينارين ونصف دينار عراقى أو عشرين ليرة سورية أو لبنانية أو ٢٤٠ قرشا مصريا) وأوسطها وهو (٢٤) درهما فى السنة على المتوسطين من تجار وزراع .

وأدناها وهو (١٢) درهما فى السنة على العمال المحترفين الذين يجدون عملا . وهذا مبلغ لا يكاد يذكر بجانب ما يدفعه المسلم نفسه من زكاة ماله وهو بنسبة اثنين ونصف بالمائة القدر الشرعى لفريضة الزكاة .

ان اسقاط الجزية عن الفقير والصبى والمرأة والراهب والمنقطع للعبادة والأعمى والمقعد وذوى العاهات اكبر دليل على ان الجزية يراعى فيها قدرة المكلفين على دفعها كما أن تقسيمها الى ثلاث فئات دليل على مراعاة دفع الحرج والمشقة فى تحصيلها وقد جاء فى عهد خالد لصاحب قس الناطف : « انى عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذى يد : القوى على قدر قوته والمقل على قدر أقلاله » ليس ذلك فحسب ، بل الاسلام أعفى دافع الجزية من الخدمة فى الجيش .

كما ضمن الاسلام اعالة البائسين والمحتاجين من المؤمنين . جاء بعهد خالد بن الوليد لأهل الحيرة « وأيما شخص ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان

غنيا فافتقر وصـــار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وأعيل من بيت مال المسلمين وعياله » .

ان فرض الجزية لا يحمل معنى الامتهان والاذلال ومعنى « صاغرون » فى آية الجزية :

« حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .
(التوبة ٢٩)

هو الخضوع اذ من معانى الصغار فى اللغة الخضوع ومنه أطلق « الصغير » على الطفل لأنه يخضع لأبويه ولمن هو أكبر منه والمراد بالخضوع حينئذ الخضوع لسلطان الدولة بحيث يكون فى دفع الجزية معنى الالتزام من قبل أهل الذمة بالولاء للدولة كما تلتزم الدولة لقـــاء ذلك بحمايتهم ورعايتهم واحترام عقائدهم .

عقد الصلح :

قال تعالى :

« وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » .
(الأنفال ٦١)

فقد أمر بعقد الصلح مع الأعداء ما اقتضت الحال ذلك ، وقضى بعدم رفض الصلح متى رغب المحاربون فيه .

وشروط الصلح أن يكون فيه مصلحة عامة ، والا يكون

فيه اباحة ما تحرمه شريعة الاسلام أو ما يلقى بالمسلمين فى خزى ، وفى هذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « الصلح جائز بين المسلمين الا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا » .

بين الاسلام والقانون الدولى(1) :

بين الاسلام والقانون الدولى عدة وجوه للشبه فى قوانين الحرب :

١ ـ يتفق القانون الدولى مع الاسلام فى وجوب الأنذار بالحرب قبل القيام بها توقيا من الغدر والهجوم المفاجىء على غرة .

فالاسلام يوجب على المسلمين قبل مقاتلتهم للكفار أن يدعوا الى الاسلام من لم تبلغه الدعوة ويستحسن أن يجددوا دعوة من بلغته الدعوة من قبل .

ذكر أبو يوسف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقاتل قوما قط ـ فيما بلغنا ـ حتى يدعوهم الى الله ورسوله . وقال الماوردى فى كتابه الأحكام السلطانية : ومن لم تبلغهم دعوة الاسلام يحرم علينا الأقدام على قتالهم غرة وبياتا بالقتل والتحريق ويحرم أن نبدأهم بالقتال قبل اظهار دعوة الاسلام لهم واعلامهم من معجزات النبوة ومن ساطع الحجة بما يقودهم الى الاجابة . فان بدأ أحد بقتالهم قبل

---

(1) سماحة الاسلام ـ د. أحمد محمد الحوفى .

أن يدعوهم الى الاسلام ينذرهم بالحجة وقتلهم غرة وبياتا ضمن ديات نفوسهم .

٢ — يتفق القانون الدولى مع الشريعة الاسلامية فى أن المحاربين هم الجنود والعاملون فى الميدان اما الرعايا الذين لا عمل لهم فى ميدان الحرب فليسوا أعداء وليس يجوز الحاق الأذى بهم .

ولقد نصت الشريعة الاسلامية على انه لا يجوز قتل النساء والصبيان والقسس فى كنائسهم والرهبان فى صوامعهم والشيوخ الكبار والمرضى ومن اعتزل القتال ، أو حالت عاهته دون أن يكون فى الجيش المحارب .

٣ — أوجب القانون الدولى العناية بالمرضى والجرحى وقرر حياد المستشفيات والمحافظة على الأطباء والمرضين والجنود الناقلين للجرحى وكذلك نهت الشريعة الاسلامية عن قتل المملوكين والمستخدمين ويدخل فى المستخدمين الأطباء والمرضين وكل من يعملون فى الاسعاف والتمريض وتخفيف آلام المحاربين .

٤ — حرم القانون الدولى الاجهاز على الجرحى وتعذيب العدو والفتك به غيلة واستعمال الأسلحة التى تزيد فى تعذيب العدو وحظر تسميم الآبار والأنهار والطعام .

ولقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغدر وعن المثلة وقال : ((**لا تعذبوا عباد الله**)) .

الآثار الاستراتيجية للحرب الاسلامية العادلة :

الحق أن الجهاد فضيلة انسانية عليا ، وأن الباعث اليه فضيلة أيضا اذ هو اعلاء كلمة الله ورد الاعتداء .

ويستقيم مع هذا المعنى أن تكون الفضيلة الاسلامية واجبة الرعاية فى الجهاد سلما وحربا ، ورعايتها فى الحرب تعلى من قدر من يتمسك بها لأنه يتمسك بها فى أصعب الظروف واشد المواقف ويراعى الفضيلة فى موقف أبيحت فيه النفوس .

من أجل ذلك فلا غرابة فى أن تكون حروب الاسلام حروبا فاضلة ، فهى حروب مقيدة بقانون السماء ، ولا يمكن أن يبيح قانون الله انتهاك الحرمات واهدار الكرامة الانسانية .

وهكذا انطوت حرب الاسلام العادلة على الآداب والفضائل التى ذكرناها مثل منع قتل من لا يحارب ومنع التخريب ، ومنع قتل الضعفاء والشيوخ والنساء والأطفال وحسن معاملة الأسرى والقتلى ومنع تعذيب الجرحى أو قتلهم ، والوفاء بالعهد والتأمين للمحارب ومجاملة رسل العدو وعدم التعرض بالأذى لهم ، وحسن معاملة الشعوب المغلوبة .. الخ .

ويهمنا ان نتناول — من الناحية العسكرية — الآثار الاستراتيجية للحرب الاسلامية العادلة ، لأنها سوف تكشف

عن عمق فلسـفة العقيدة العسكرية الاسلامية(١) وتؤكد ما ذهبنا اليه من أنها عقيـدة سليمة الطابع ودفاعية وغير عدوانية ، وأنها عقيـدة عسكرية فذة ومثالية فى جوهرها وطابعها ودوافعها وتوجيهاتها .

لقد اتفق علماء الاستراتيجية العسكرية على المبادىء الآتية (٢) :

١ ـ ان الغرض من الحرب يجب أن يكون الحصول على « سلم أفضل » ، وانه من الضرورى أن يضع القـادة فى اعتبارهم باستمرار ـ وهم يديرون الحرب ـ السلم الذى يرغبون فيه .

٢ ـ انك لو ركزت كل طاقتـك بنـوع خاص لكسب النصر « دون أى اعتبار » للتأثير الذى يصيبك بعد ذلك ، فانك سوف تكون مجهدا لدرجة يتعذر عليك فيها الاستفادة من السلم .

٣ ـ راع أن توقع ضرباتك « أقل ضرر دائم ممكن ، لأن العدو اليوم هو عميل (زبون) الغد وحليف المستقبل » .

٤ ـ كلما زادت وحشـية وسائلك زادت مقـاومة

---

(١) انظر كتاب « النظرية الاسلامية فى العقيدة العسكرية » من سلسلة نظريات العسكرية الاسلامية .

(٢) الاستراتيجية ـ الاقتراب غير المباشر ـ ليدل هارت .

خصومك ، فتصبح النتيجة الطبيعية هى تصلب المقاومة التى تحاول التغلب عليها .

٥ ـــ عندما تصل الى هدفك العسكرى فكلما زدت من مطالبك تجاه الجانب الآخر قابلت متاعب أكثر ، وهيأت السبب لقيام العدو بمحاولة لقلب الاستقرار الذى حصلت عليه فى الحرب .

وبمعنى آخر فان مبادىء الاستراتيجية الحقة تنادى بما يلى :

« عليك وانت تحارب أن تهيىء الظروف المناسبة لقيام سلم حقيقى ومستقر بعد انتهاء الحرب ، ولا تستخدم من أساليب القهر والتسلط الغاشم سواء فى أثناء الحرب أو بعدها ما يؤدى الى أن يكون السلم مشوها لاحتوائه على جراثيم حرب تالية » .

ولقد حفل التاريخ بأدلة قاطعة على أن الشطط والمبالغة فى ادارة الحروب لا يهيئان مناخا لقيام سلام مستقر أو دائم .

ولقد دفعت سلسلة الحروب الواسعة ـــ وعلى رأسها الحرب الثلاثينية ـــ رجال السياسة فى القرن الثامن عشر الى ادراك هذه الحقيقة ، والى ادراك ضرورة كبح أطماعهم وأهوائهم الخاصة عندما يشتبكون فى حرب ، وضرورة تحديد الحرب وآثارها بمعنى تجنب الشطط والمبالغة فى كل الأعمال التى قد تطيح بالآمال المعقودة على حالة ما بعد الحرب ..

ومن ناحية أخرى فقد أدى ادراكهم هذا الى أنهم أصبحوا أكثر استعدادا للتفاوض على السلم عندما يبدو النصر بعيد المنال .

ونأخذ من سجل التاريخ مثلا آخر هو حروب نابليون التى امتدت قرابة العشرين عاما . فقد كان يتصور تحقيق سلم دائم عن طريق الحرب تلو الأخرى ولكن النتيجة جاءت على عكس تصوره ، بل وصل الأمر الى حد انهيار الامبراطورية النابليونية .

وما حدث فى الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـــ ١٩١٨ يعتبر درسا لا ينسى فى هذا المجال ، فان المعاملة القاسية(١) التى لقيتها المانيا على يد الحلفاء المنتصرين تحت شعار « ويـــل للمغلوب » والعقوبات الاقتصادية التى أثقلت كاهل الاقتصاد الألمانى جعلت السلام الذى جاء بعد تلك الحرب مشـــــوها « يحمل معه جراثيم حرب تالية » كما يقولون .. وهذا هو ما حدث فعلا فان تلك القســـــوة بالذات كانت هى الدافع الرئيسى لهتلر فى العمل بكل الوسائل على انهاض المانيـــــا وبالتالى سرعة نشوب الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ .

أما حروب الاسلام بداوافعها السلمية الفاضلة وآدابها وانسانيتها وسماحتها فلم تنطو على مايقطع الأمل فى سلم حقيقى ومستقر ، بل كانت تجعل جراح المغلوبين تلتئم بسرعة، أى أنها كانت « خالية من جراثيم حرب أخرى » ، بل لقد كان

---

(١) اسباب الحروب ـــ جيفرى بلينى .

السعى نحو ذلك النوع من السلام هدفا من أهم الأهداف .. وفى سجلات التاريخ خير برهان ..

١ ــ ففى غزوة بدر طلب(١) النبى عليه الصلاة والسلام الى المسلمين منذ اللحظة الأولى من المعركة الا يقتلوا بنى هاشم والا يقتلوا بعض رجال من سادات قريش ، مع أنهم اشتركوا فى قتال المسلمين ، ومع أنهم كانوا سيقتلون من المسلمين من يستطيعون قتله ، ولا تحسب أنه فى ذلك أراد ان يحابى أهله أو أحداً ممن يمتون له بصلة القربى فنفس محمد أسمى من ان تتأثر بمثل هذا ، وانما كان ذلك لأنه ذكر لبنى هاشم منعهم اياه وحمايته مدى ثلاثة عشر عاما من يوم بعثه الى يوم هجرته ، حتى كان عمه العباس معه ليلة بيعة العقبة ، وذكر لغير بنى هاشم من قريش من قاموا وهم على الكفر يطالبون بنقض الصحيفة التى اضطرته بها قريش أن يلزم هو وأصحابه الشعب بعد أن قطعت قريش بهم كل صلة وكل علاقة . فهذا المعروف الذى تقدم به هؤلاء وأولئك قد اعتبره محمد حسنة يجزى من قدمها بمثلها ، لذلك كان هذا العمل شفيعا لهم عند المسلمين ساعة القتال ، وان أبى بعض هؤلاء القرشيين أن يستظلوا بهذا العفو على نحو ما فعل أبو البخترى أحد الذين قاموا بنقض الصحيفة فقد أبى وقتل .

هذا دون شك ــ نمط فريد لسلوك قائد نحو أعدائه فى

---

(١) حياة محمد ــ د. محمد حسين هيكل .

أتون المعركة وليس من شك فى أنه سلوك لا يلجأ اليه الا قائد يجعل همه — وهو فى قلب المعركة — اتخاذ كل ما من شأنه أن يهيىء الفرصة بعد المعركة لسلام مستقر ، وتجنب كل ما من شأنه أن يقطع الأمل فى قيام مثل هذا السلام .

٢ — وفى غزوة ألفتح كانت كل الظروف مهيأة أمام المسلمين لتحقيق نصر عسكرى ساحق على قريش ، ولو كان هم رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يحقق النصر على أعدائه دون أدنى اعتبار لما بعد النصر ، ما نفذ ذلك المخطط العبقرى الذى صممه وحقق به فتح مكة بلا قتال واذا كان من شأن المنتصر أن يستبد ويملى شروطه بدافع الغيظ والانتقام والغرور بالقوة فان الرسول صلى الله عليه وسلم — ورغم كل ما فعلت قريش ضد الاسلام والمسلمين — لم يفعل شيئا من ذلك ، بل كان كل همه وكل قصده أن يؤلف قلوب المشركين ويجعلها تقبل على الاسلام الذى هو دين السلام .

لقد حرص الرسول القائد على مراعاة الحالة النفسية والمعنوية لقريش اذ لم يكن من السهل عليها أن ترضى بمصيرها الذى آلت اليه وقد كانت سيدة العرب غير منازع لأنها أعظمهم حضارة ، وأشدهم بأسا ، وأكثرهم مالا وفى بلدها البيت الحرام ، ومن ثم كان تصرفه فى أهل مكة بعد الفتح وهم ينتظرون ما هو فاعل بهم تطبيقا لمبادىء الاسلام السمحة، ولعقيدته العسكرية السلمية ، بل كان مثلا فذا للعبقرية السياسية والعسكرية معا حين قال لهم « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

٣ ــ وفى غزوة خيبر ــ بلد اليهود الذين نكثوا عهدهم مع المسلمين وحرضوا العر ب على غزوهم وانضموا اليهم ــ منع الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يدخلوا بيتا من اليهود الا باذنه ، والا يضربوا نســاء اليهود أو يعتدوا على ثمراتهم . وكان عليه الصلاة والســلام يحضر ولائم أهل الكتاب ، ويغشى مجالسهم ويواسيهم فى مصائبهم ويعاملهم بكل أنواع المعاملات التى يتبادلها المجتمعــون فى جماعة يحكمها قانون واحد ، وتشغل مكانا مشتركا ، فقد كان يقترض منهم نقودا ويرهنهم متاعا(١) ولم يكن ذلك عجزا من أصحابه عن اقراضه فان بعضهم كان ثريا ، وكلهم يتلهف على أن يقرض رسول الله ، بل كان يفعل ذلك تعليما للأمــة ، وتثبيتا لما يدعو اليه الاسلام من سلام وتآلف ، وتدليلا على أن الاسلام لا يقطع علاقات المسلمين مع مواطنيه من غير دينهم .

٤ ــ وها هو ذا أبو بكر رضى الله عنــه أول خليفــة للمسلمين يسير على نفس النهج الذى رسمته شريعة الاسلام السمحة ، وعلى هدى رسوله الكريم فنراه يوصى قائد الجيش وهو يستعد للخروج للقتال فيقول(٢) « اذا سرت فلا تعنف أصحابك فى السير ولا تغضبهم وشــاور ذوى الآراء منهم .

---

(١) توفى الرسول ودرعه مرهونة عند يهودى فى المدينة .

(٢) الخطابة ــ الشيخ على محفوظ .

واستعمل العدل وباعد عنك الجور فانه ما أفلح قوم ظلموا ، ولا نصروا على عدوهم :

يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار * ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله »

الأنفال : ١٥ ، ١٦

« واذا نصرتم فلا تقتلوا شيخا ولا امرأة ولا طفلا »

« ولا تحرقوا زرعا ولا تقطعوا شجرا ، ولا تذبحوا بهيمة، الا ما يلزمكم للأكل ولا تغدروا أذا هادنتم ولا تنقضوا اذا صالحتم ، وستمرون على أقوام فى الصوامع رهبان ترهبوا لله فدعوهم وما انفردوا اليه ، وارتضوه لأنفسهم ، ولا تهدموا صوامعهم ، ولا تقتلوهم ، والسلام » .

٥ — وعلى نفس النهج أوصى عمر بن الخطاب رضى الله عنه سعد بن أبى وقاص قائده الذى وجهه لفتح فارس فقال: « أما بعد فانى أوصيك ومن معك من الأجناد بتقوى الله فى كل حال فان تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة فى الحرب وأن تكون أنت ومن معك أشد احتراسا من المعاصى من عدوكم ، فان ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم وانما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم الله ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم، فان استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة وان لم ننصر عليهم بطاعتنا لم نغلبهم بقوتنا . واعلموا أن عليكم فى

سيركم حفظة من الله ، يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله واسألوا الله العون على انفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم . واقم بمن معك فى كل جمعة يوما وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ، وأبعد منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك الا من تثق بـه(١) » .

الآثار الاستراتيجية لسماحة الاسلام :

ولقد تركت سماحة الاسلام آثارا عميقة وعديدة نذكر منها ما يتصل بالاستراتيجية العسكرية فيما يلى :

أولا : من ناحية قريش :

فانها لم تقبل على الاسلام فحسب بل حملت رايات الجهاد فى سبيل الله ، وتحولت اتجاهاتها من اشد الناس عداوة للاسلام ، الى أحرص الناس على رفع راية الجهاد فى سبيله وليس هذا فحسب بل كان من عرب شبه الجزيرة

---

(١) كان عمر بن الخطاب بالشام ، وحانت الصلاة وهو فى كنيسة القيامة ، فطلب البطريق من عمر أن يصلى بها ، وهم أن يفعل ، ثم صلى على درجة من درجات السلم خارجها واعتذر بأنه يخشى أن يأخذها المسلمون فيما بعد بدعوى أنه صلى فيها ، وكتب للمسلمين كتابا يوصيهم فيه بالا يصلوا على الدرجة التى صلى عليها الا واحدا واحدا غير مؤذنين للصلاة وغير مجتمعين .

قادة عسكريون أفذاذ قدر لهم — كما يقول مونتجمرى — ان يكونوا من أعظم قادة الفتوحات الاسلامية مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص .

* * *

ثانيا من ناحية الفتوح الاسلامية :

كانت الشعوب المختلفة ترحب بالمسلمين الفاتحين ، وتنضم اليهم أحيانا لتنجو من عسف ألفرس والروم وتستظل بوارف من العدل والسماحة والحرية ، ولقد تحقق لهذه الشعوب ما أملته ، وسرعان ما دان أكثرها بالاسلام عن رغبة واختيار ، وسرعان ما صارت البلاد المفتوحة موئلا للاسلام ، وصار أهلها من دعاته وحملة لوائه ومن المجاهدين فى سبيله ، وقد أثار ذلك دهشة الفيلد مارشال مونتجمرى فى كتابه « الحرب عبر ألتاريخ » فقال « من العجيب ان القوة الرئيسية للجيوش الاسلامية فى فتح اسبانيا بين عامى ٧١٠ — ٧١٣ كانت مشكلة من الليبيين والتونسيين » .

ولقد علل مونتجمرى نفسه سر هذه الفتوحات الاسلامية وكيف وصلت الى مدى لم تصله فى أى عهد سابق بأن المسلمين كانوا يستقبلون فى كل مكان يصلون اليه كمحررين للشعوب من العبودية وذلك لما اتسموا به من تسامح ، وانسانية ، وحضارة فزاد ايمان الشعوب بهم .. وقد ظلت جميع المناطق التى فتحها العرب فى القرن السابع حتى يومنا هذا — ما عدا

اسبانيا — تحتفظ بالدين الاسلامى وكذلك بالعادات والتقاليد والتراث الاسلامى .

ولقد سجل التاريخ للفتوحات الاسلامية صفحات ناطقة بالآثار الاستراتيجية العسكرية لسماحة الاسلام فمن ذلك مثلا ما يلى(١) :

١ — كتب المسيحيون فى الشــام الى أبى عبيدة وهو معسكر فى فحل يقولون : يا معشر المسلمين أنتم أحب الينا من الروم ، وان كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا ، وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا .

وأغلق ســكان حمص أبواب مدينتهم حتى لا يدخلها جيش هرقل وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعهدهم أحب اليهم من ظلم الرومان وتعسفهم .

٢ — وكانت فى الشمال قبائل عربية دانت بالمسيحية زمنا طويلا فلما بدأ الاسلام يصطرع مع الروم سارع بعضها الى اعتناقه والانضمام الى المسلمين مثل بنى غسان .

٣ — وكذلك صنعت بعض القبائل العربية التى كانت موالية للفرس ، فقد وفد على قائد المسلمين بعد موقعـــة القادسية سنة ١٤ هـ كثير من العرب المسيحيين المقيمين على ضفاف الفرات وأسلموا كما أسلم اخوان لهم من قبل .

---

(١) سماحة الاسلام — د. أحمد محمد الحوفى .

وفى موقعة الجسر سنة ١٣ هـ كاد المسلمون ينهزمون هزيمة ساحقة وهم محصورون بين الفرات والجيش الفارسى واذا بزعيم مسيحى من قبيلة طيىء ينضم الى المثنى القائد المسلم ويساعده فى النجاة والارتداد المنظم .

ثم لما استرد المسلمون قواهم وهجموا تدفقت عليهم من كل فج جموع من العرب ، منها قبيلة بنى النمر النصرانية التى كانت تقيم داخل النفوذ البيزنطى ، وهكذا تتكرر الأمثال .

٤ ــ وكذلك رحب القبط فى مصر بالفتح الاسلامى ولقوا من عمرو أعظم التسامح لأنه انقذهم من الاضطهاد الدينى ومن عسف الروم وتنكيلهم بمخالفيهم فى المذاهب فقد قست بالتنكيل بهم قسوة لم ينسها أعقابهم حتى اليوم أذ كان بعضهم يعذب ثم يلقى بهم فى اليم ، وقتل منهم نحو مائتى الف فى مدينة الاسكندرية بأمر من الامبراطور جستنيان .

٥ ــ ولما فتح المسلمون بلاد الفرس لم يلقوا من الشعب مقاومة عنيفة ، لأن حكامه كانوا قد استبدوا به واعنتوه ولأنهم كانوا يناصرون ديانة زرادشت التى صارت الدين الرسمى للدولة وقد كانت من قبل بغيضة الى الأهلين ومنذ صارت الزرادشتية دين الدولة علا مكان كهنتها واستغلوا نفوذهم فى اضطهاد الفرق الدينية الأخرى وكانت كثيرة .

ثم ان المسيحيين واليهود والصابئة وغيرهم لم يسلموا من هذا الاضطهاد وكان الشعب ينوء بالضرائب الباهظة

والنظام الطبقى الجائر والحكم الفردى الفاسد ، لهذا لم يكد يتم للمسلمين النصر حتى تنفس الفرس الصعداء ورحبوا بهم حبا فى الخلاص من الحكام ، ورغبة فى اعفائهم من الخدمة العسكرية واملا فى متعتهم بالحرية الدينية .

ولم يخب امل الفرس فى عدالة المسلمين وسماحتهم لأنهم عاملوا بالتسامح من بقى من الفرس على دينه وكفلوا لهم الحرية فى عبادتهم ومعابدهم .

يدل على ذلك أن احد قواد الخليفة المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ هـ — ٨٣٣ — ٨٤٢ م) أمر بجلد امام ومؤذن لأنهما اشتركا فى هدم معبد من معابد المجوس .

ويدل على ذلك ايضا أن معابد النار فى القرن العاشر الميلادى — بعد الفتح بثلاثة قرون — كانت تملأ العراق وفارس وكرمان وسجنان وفخراسان وأذربيجان حتى أنه لم تخل مدينة من مدن فارس من معبد أو معابد لعبادة النار .

ولا شك أن معابد النار بهذه الكثرة بعد الفتح الاسلامى دليل على أن الذين أسلموا من الفرس انما أسلموا عن رغبة صادقة وحرية فى الاختيار بعد أن وأزنوا بين دينهم القديم وبين الاسلام .

٦ — ثم فتح المسلمون أسبانيا فأنجدوا سكانها من العسف والمذلة لأن القوط كانوا هم حكامها وسادتها ، اذ انهم لما دخلوها فاتحين طردوا منها الوندال والروم واستقلوا بها

منذ سنة ٤٨٤ م . وبقيت فى قبضتهم أكثر من مائتى عام(١) .

شهادة الأجانب حول سماحة الاسلام

١ ــ قال جوستاف لوبون(٢) :

« ان القـــوة لم تكن عاملا فى نشر القرآن وأن العرب تركوا المغلوبين أحرارا فى أديانهم فاذا كان بعض النصارى قد أسلموا واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذى لم يكن للناس بمثله عهد ، ولما كان عليه الاســـلام من السهولة التى لم تعرفها الأديان الأخرى .. وقد عاملوا أهل سورية ومصر وأسبانية وكل قطر استولوا عليـــه بلطف عظيم تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم غير فارضين سوى جزية زهيدة فى مقابل حمايتهم لهم وحفظ الأمن بهم .

---

(١) لم تجر اليهودية على سماحة فى معاملة خصومها فقد جاء فى العهد القديم « حين تقترب من مدينة لتحاربها ادعها الى الصلح ، فان أجابتـــك وفتحت لك فكل ما فيها مسخر لك ومستعبد ، وان لم تسالمك وحاربتك فحاصرها فاذا دفعها الرب الهك الى يدك فاضرب ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والاطفال والبهائم وكل ما فى المدينة فهو غنيمة لك . وأما مدن هذه الشعوب التى يعطيك الرب اياها فلا تستبق منها نسمة ما بل أهلكها اهلاكا » سفر التثنية ٢٠/١٠ ــ ١٤ (سماحة الاسلام) .

(٢) حضارة العرب ــ جوستاف لوبون ــ ترجمة عادل زعيتر .

والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل العرب » .

٢ — وقال الكونت هنرى دى كاسترى(١) :

« ان المسلمين امتازوا بالمسالمة ، وحرية الأفكار فى المعاملات ، ومحاسنة المخالفين وهذا يحملنا على تصديق ما قاله (روبنون) : ان شيعة محمد هم وحدهم الذين جمعوا بين المحاسنة ومحبة انتشار دينهم .

وهذه المحبة هى التى دفعت العرب فى طريق الفتح ، فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشه المظفرة .. ولم يتركوا أثرا للعسف فى طريقهم الا ما كان لا بد منه فى كل حرب وقتال ، ولم يقتلوا أمة أبت الاسلام » .

٣ — وقال فريمان(٢) :

« كانت الدعوة الى ميدان القتال بالنسبة للعرب الأول أشبه ما تكون بالدعوة الى وليمة عرس ، وكان هؤلاء الرجال مع شراستهم فى القتال شديدى الدماثة بعد النصر ، فلقد حفظوا عهودهم تمام الحفظ ، ولم نسمع عن مجازر لا تمييز فيها قد ارتكبوها ، ولم يكن مما يشين جيوش رومة وفارس أن ينتصر عليها مثل هؤلاء الناس » .

---

(١) الاسلام خواطر وسوانح — ترجمة احمد فتحى زغلول .

(٢) فى كتابه « تاريخ العرب » .

محتويات الكتاب

الموضـــوع **الصفحة**

التقاليد العسكرية للجندية ١٥

ـ التقاليد العسكرية فى توجيهات الاســلام . الجندية . الانضــباط . أسس بناء الانضــباط (الحرية والكرامة الانســانية ـ تنمية الضمير الدينى ـ تقدير المسئولية والاخلاص فى العمل ـ التدريب العملى على الانضــباط) . الطاعة . النظام والنظافة وحسن المظهر . الاحترام المتبادل بين الرتب واحترام الأقدمية . العناية بالأسلحة والمعدات . الأخلاق الفاضلة

آداب الحرب ٤٧

ـ سبق الاســلام بتقرير آداب الحرب . حرب مثالية . منع قتل الضعفاء وغير المقاتلين ومنــع التخريب . حسن معاملة الأسرى . منع التمثيل بجثث القتلى او تعذيب الجرحى . الوفاء بتأمين المحارب . مجالة رسل العدو وعدم التعرض لهم بأذى . سماحة الاســلام مع المغلوب . عقــد الصلح . بين الاسلام والقانون الدولى . الآثار الاستراتيجية للحرب الاسلامية العادلة . الآثار الاستراتيجية لســماحة الاســلام . شــهادات الأجانب حول سماحة الاسلام .